

أثر حركة الحجيج علي التركيبة الديموغرافية في السودان

أستاذ مساعد - جامعة الرباط الوطني

د. إقبال محمد أحمد وراق

المستخلص:

سلك حجاج منطقة السودان الغربي قبل قيام دولة مالي طرق التجارة، وطُرق دخول الإسلام إلي مختلف مدن وأقاليم وممالك هذه المنطقة، عند توجههم إلي حج بيت الله الحرام بمكة، فقد نشأت العلاقات التجارية بين مدن الشمال الإفريقي، ومدن السودان الغربي، فقد سلك التجار الطريق الممتد من سجلماسة إلي أوداغست، ومنه إلي مملكة غانة، ووصف يعقوبي هذا الطريق، يؤكد معرفة العرب المبكرة لهذا الطريق فقد انعكست علي رحلات الحج منذ المراحل الأولى للحضور الاسلامي بإفريقيا ويشمل هذا المفحول تغيير واضح في التركيبة الديموغرافية والذي تمثل في النواحي الاجتماعية والسياسية، والثقافية، وتتمحور أهمية الدراسة في معرفة الحركة والتركيبة الديموغرافية للحجيج عبر السودان وأثرها علي التركيبة الديموغرافية السودانية وتسليط الضوء علي دور الطرقي التعارف والتلاقح بين الشعوب والثقافات والحضارات ولذلك هدفت الدراسة لفهم الظواهر السكانية في ضوء البناء الاجتماعي للمجتمع وذلك من خلال الربط بين العلاقات الاجتماعية السودانية والتركيب المجتمعي للحجيج وتأثيرها في الحياة الاجتماعية والثقافية وتوضيح جوانب التغيير الذي حدث في التركيبة القبلية السودانية ومعرفة الاسباب الاستراتيجية الجغرافية لإسقرار بعض الحجيج العابرين للسودان، تتقاطع « الديمغرافية التاريخية » مع « السمات الجغرافية لمناطق العبور » من حيث المنهج والموضوع ، فهي تنقل المنهج الديمغرافي وتحاول تطبيقه في دراسة التأثير الديمغرافي لسكان معينة في تاريخ معين، إلا أن الإختلاف الأساسي بين التخصصين، هو كون الديمغرافية التاريخية تدرس الخصائص الديمغرافية للسكان وترصد تغيراتها في تاريخ الزمن الماضي، وهنا تختلف مصادرها وتقنياتها ومناهجها بالضرورة عن مثيلاتها في الدراسة الديمغرافية الآتية و سوف تقوم الدراسة بإتباع المنهج الوصفي التحليلي للوصول للحقيقة العلمية الموثقة تاريخياً، و ذلك من خلال الإعتماد علي المصادر الأولية ، ومن المتوقع أن تسهم الدراسة في وضع مؤشرات يمكن أن يُستفاده منها في الواقع السوداني الحالي بغرض النهوض بالأمه السودانية في لعلاقات الدبلوماسية الاستفادة من الإرث الثقافي وأخذ كل الإيجابيات وعكسها علي المجتمع السوداني وتوسيع العلاقات الاقتصادية والتعاون الدولي المشترك بين الدول الاسلامية لتعزيز شراكات في مجال الحج.

الكلمات المفتاحية: حركة الحجيج ، السودان الغربي ، التركيبة السكانية ، الديموغرافية ، السودان.

The impact of the movement pilgrims on the demographic structure in sudan

Iqbal Muhammed Ahmad Warraq

Abstract:

Before the establishment of the State of Mali, the trade routes and ways of entering Islam into the different cities, regions and kingdoms of this region, when they went to the pilgrimage to Mecca in Mecca, commercial relations were established between the cities of the North Africa and the cities of Western Sudan. From Sigalmasa to Udaagst, and from there to the Kingdom of Ghana. Al-Yaqoubi described this way, confirming the knowledge of the early Arabs of this way. It has been reflected in Hajj trips since the early stages of the Islamic presence in Africa. The study aims to understand the demographic phenomena in the light of the social structure of the society by linking the Sudanese social relations with the social structure of the pilgrims. And, its impact on the social and cultural life and clarify aspects of change that took place in the tribal structure of Sudan and the knowledge of the strategic reasons of geographical stability of some of the pilgrims crossing Sudan The “historical demographics” intersect with the “geographical characteristics of transit areas” in terms of curriculum and subject matter. They convey the demographic approach and attempt to apply it to the study of the demographic history of a given population in a specific date. However, the difference basic between the two specialties is that the historical demography examines the demographic characteristics of the population and monitors its changes in the history of the past time, and here the sources, techniques and methods necessarily differ from the three in the current demographic study. The study is expected to contribute to the development of indicators that can be used in the current Sudanese reality for the purpose of enhancing the Sudanese nation in the relations of diplomacy. To benefit from the cultural heritage and take all the positives and vice versa. In the Sudanese society and the expansion of economic relations and international cooperation among Islamic countries to promote partnerships in the field of pilgrimage.

المقدمة:

بدأ المسلمون في أداء فريضة الحج في العام التاسع للهجرة، أي في العام التالي لعام الفتح، وأصبحوا يتوافدون إلى مكة من كل فجعميق، فمنهم من يأتيها براً أو بحراً أو جواً في العصور الحديثة يعد شرق إفريقيا مكاناً مهماً في التاريخ الإسلامي بسبب موقعه الجغرافي بين مدن الدول العربية، بدأت رحلات الحج من شرق إفريقيا إلى بلاد الحرمين الشريفين منذ وصول الإسلام في المنطقة من القرون الأولى للهجرة، لم تكن الرحلات والسفر إلى الحج في القرون الأولى من وصول الإسلام في المنطقة سهلة، وذلك لعدم وجود وسائل معينة وحديثة للسفر رحلات الحج مناخاً مائماً لتتلاقح الأفكار والمبادئ السياسية التي قامت على أساسها دول ونظم سياسية وقد ظلت الحركة متصلة لحجاج الغرب الإفريقي عبر عدة طرق ولكن أشهرها وأكثرها استخداماً هي الطرق العابرة للسودان وقد وصف (بروكهاردت) في بدايات القرن التاسع عشر طريق حجاج الحزام السوداني وأوضح أنه كان هناك طريقان معروفان داخل السودان (جمهورية السودان الحالية) إما عبر سنار أو عبر شندي، فالذين ينقسمون عبر سنار يتجهون إلى ثلاث طرق: الأولى إلى قندر ثم أكسوم ومنها إلى مصوع. الثاني: عبر النيل إلى شندي. والثالث من سنار إلى التاكا عن طريق رأس الفيل ومنها إلى حلنقة.⁽¹⁾

الأهداف:

- فهم الظواهر السكانية في ضوء البناء الاجتماعي للمجتمع وذلك من خلال الربط بين العلاقات الاجتماعية والثقافية السودانية والتركيب المجتمعي للحجيج.
- توضيح جوانب التغيير الذي حدث في التركيبة القبلية السودانية.
- معرفة الأسباب الاستراتيجية الجغرافية لاستقرار بعض الحجيج العابرين للسودان.

الأهمية:

- معرفة الحركة والتركيب الديموغرافية للحجيج عبر السودان وأثرها على التركيبة الديموغرافية السودانية.
- تسليط الضوء على دور الطرقي التعارف والتلاقح بين الشعوب والثقافات والحضارات، تتقاطع « الديموغرافية التاريخية » مع « السمات الجغرافية لمناطق العبور

الفرضية:

- ما للتداعيات الدينية والاجتماعية التي أثرت على التركيبة الديموغرافية؟
- ما مدى مساهمة الحجيج في تطور العلاقات السياسية والاجتماعية والثقافية في السودان؟
- ما أثر العوامل الجغرافية والاستراتيجية في استقرار الحجيج في السودان؟

حركة مسالك الحجيج عبر السودان:

تفيد المصادر التاريخية أن الطرق الصحراوية قد ظهرت حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، بفعل اعتماد الجمال في الأسفار الصحراوية على أيدي الرومان الطرابلسيين، وكذلك بفعل رغبة القرطاجيين في الاستحواذ على حركة التجارة. يقول بوهين في ذلك: "لقد نشط القرطاجيون في

التجارة عبر الصحراء الكبرى؛ ليقطعوا بذلك كل الوساطات التجارية، وليسيطروا مباشرةً على الموارد الغنية التي كانوا يتاجرون من أجلها، ومن تلك الموارد الغنية الرائجة في التجارة الصحراوية منذ حوالي القرن الخامس قبل الميلاد: جلود الحيوانات، والأحجار الكريمة، والزمرد، والعقيق الأزرق. يعتبر الطريق الأول للحج من شمال إفريقيا الذي كان ينطلق من الفسطاط عاصمة مصر الأولي، ثم يمر بشبه جزيرة سيناء حتي أيلة، ومنها يتجه إلي غرب شبه الجزيرة العربية بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الأحمر، إلي أن يصل الي مدينتي الحجاز، وبعد مراحل متعددة ينتهي بمكة المكرمة، غير ان حروب الصليبيين التي تعرضت لها بلاد الشام اوقفت هذا الطريق، ودعت الي إيجاد بديل له عبر ميناء عيذاب⁽²⁾ وتوجد أيضا طرق تخترق الصحراء الكبرى إلى ليبيا الحالية، وصولاً إلى مصر، وإلى جمهورية السودان الحالية، مروراً بمنطقة دارفور فمناطق بورتسودان، وتعد الطرق في هذا الجانب أكثرها حداثة، ولكن أكثرها تأثيراً في السياسة والاجتماع. ومن أهم طرقها ما يعرف بالطريق الأوسط، ويمتد من طرابلس عبر غدامس، والغات، والفقار، وصولاً إلي غاو عند نهر النيجر ويعرف أيضا بالطريق الغرامانتي (Garamantian Route) وهو الطريق الممتد من طرابلس إلى فزان، فبورنو وتحت كل منها هاتين المجموعتين طرق متفرعة موصلة بين الحواضر التجارية القديمة⁽³⁾.

الطريق الغربي:

نسبة لعلاقات سلطنة الفونج مع العالم الخارجي صارت سنار ملتقي الطرق التجارية القادمة من الشمال والشرق والجنوب والغرب هذه الطرق كان تربط اجزاء السلطنة بمشيخاتها ومدنها كما تربطها بالعالم الخارجي عبر الرحلات التجارية وقوافل الحج والهجرات من والمملكة واهم الطرق التي كان لها الاكبر في انعاش وتطور السلطنة وتوثيق صلاتها بافريقيا جنوب الصحراء وشمالها هو الطريق الغربي الذي يربط سنار ودارفور بسلطنات بلاد السودان الغربي قاطبة وهو الشريان الرئيسي الذي يربط اطراف القارة الافريقية ببعضها البعض والطريق الغربي عامر بالمسافرين علي مدار العام رغم ان موسم الحج محدود بزمان الا ان موعد خروج رحلات الحجاج من بلاد الغرب الافريقي غير محدد فهناك حجاج يخرجون من غينيا واقاصي بلاد الغرب الافريقي قبل عامين من الزمن المحدد فتجوب رحلاتهم الموانئ والمحطات الي تتجمع فيها الحجيج الذين ينتظرون موعد القافلة اذا كانت الرحلة برية او بحرية اذا بالسفن فتمر هذه الرحلات بالممالك والبلاد الاسلامية وغير الاسلامية التي تحولت فيما بعد للاسلام بفضل هؤلاء المسافرين لذلك كانت القافلة تستغرق زمنا طويلا قبل خروجها⁽⁴⁾ لذلك كان لطريق الغربي اهمية كبرى لسكان السودان الاوسط والغربي قاطبة وعبر هذه الطرق وصلت عددمن الهجرات الي الشرق سواء كان بدافع الحج او الدافع الديني او الاقتصادي مما كان لها اثرها في الجانب الاجتماعي لسكان السودان علي وجه الخصوص يبدأ الطريق الغربي من برنو الي سلطنة وادي ثم يمر بسلطنة الفور فيتجه شرقا إلي مركز كباكبية ثم كردفان وسنار وشندي الي البحر الاحمر وجدة والاماكن المقدسة كما ان هذا الطريق كان معبرا للثقافة والفكر الاسلامي ومنه دخل الاسلام والمذاهب المالكي الي دارفور كما هاجرت به عدد من

المجموعات الاثنية كالبرنو والفلاته والهوسا والبرقو والمساليت والداجو وبعض المجموعات العربية كالمحاميد والرزيقات الي داخل السودان.⁽⁵⁾

هجرة الفلاتة:

هاجرت مجموعات من الفلاته في رحلات فرديه سنويه مع القوافل القادمه من غرب افريقيا ومن شمال نيجريا تحديدا في بدايات القرن الثالث عشر الميلادي بغرض الحج وذلك بعد انتشار الاسلام في سلطنات غرب افريقيا وتفشي ثقافة الحج بين عامة المجتمعات الافريقية المسلمة فوصلت هجرات الفلاته شرقا حتي باقرمي ووادي ودارفور واستقروا بوسط السودان والنيل الازرق علي بعد خمسة عشر كيلو مترجنوب سنار يقودهم الشيخ طلحه الذي هاجر من باقرمي وفوتاورو بالسنگال بالتحديد، وهو من فلاته ملي احد فروع قبيلة الفلاته الكبار واسس قرية الشيخ طلحه، فشجعه سلاطين الفونج علي الاستقرار وعدم العودة الي بلاده، فتجمع حوله عدد من الاتباع والمريدين وكانت حلقاته العلمية عامرة بطلاب العلم والذاكرين من فذاع صيته في تدريس العلوم الاسلاميه وانصهر احفاده بالمجموعات العربية التي ساكونهم وعلي اثر ذلك توافدت مجموعته كبيرة من المهاجرين الفلاته الي تلك المناطق واستقروا بدارفور وكردفان والجزيرة وسنار والنيل الازرق وما جاورها، ووقد ترك الفلاتة الوافدين اثرا كبيرا في سلطنة الفونج في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية.⁽⁶⁾

قبيلة الهوسا:

الهوسا اسم اطلق علي شعوب غرب افريقيا الذين يتحدثون لغة الهوسا وهم اكبر المجموعات الافريقية هاجروا بالطريق الغربي الي السودان في القرن الحادي عشر الهجري وكانت هجرتهم الي السودان كسائر الهجرات البشرية الاخرى بغرض الحج عبر الطريق الغربي فاستقروا بالسلطنة في أجزاء متفرقة ووصلوا شرقاً حتي القصارف القلابات إلا ان هجرتهم إزدادت أكثر بظهور المهديّة في السودان ومؤازرتهم له⁽⁷⁾

لا أحد يستطيع تحديد تاريخ بداية إستقرار أو إستيطان الهوسا في السودان، غير أن المؤرخين يؤكدون أن طريق الحج عبر السودان كان سالكاً منذ بداية القرن الثامن عشر، وأن حجاج غرب إفريقيا، ابتداءً من السنغال، كانوا يؤدون فريضة الحج عبر هذا الطريق. ودراسة عملية إستقرارهم هذه والتعاطي معها يقتضيان النظر إليها في سياقها التاريخي الذي جرت فيه، وسياقها الروحي الذي تمت فيه، فكثير من أبناء الجيل الحالي يتخيل أن هذه القارة الإفريقية موجودة بتقسيماتها الحدودية الحالية منذ الأزل، وقليل منهم من يعرف أن الحدود السياسية بين الأقطار الإفريقية لا يتعدي عمرها الـ (114) عاماً⁽⁸⁾. فقبل هذا التاريخ كانت كل المساحة الجغرافية الممتدة من السنغال عبر القارة إليالبحر الأحمر تعرف بـ«بلاد السودان»، وتتظمها ممالك وسلطنات ومشيخات، يعمل كل حاكم علي تغذية منطقة نفوذه بمزيد من السكان عن طريق الاستقطاب والتشجيع علي الاستقرار، ذلك لأن السكان هم دعامة القوة الاقتصادية والعسكرية، في وقت لم تدخل فيه الآلة في الإنتاج ولم تظهر الآلة العسكرية بعد. لذلك فقد كان انتقال مجموعة بشرية

من مكان إلي آخر داخل القارة يتم بصورة سلسلة، تخدم مصالح مشتركة لكل من الضيوف والمضيفين. هذا من ناحية السياق التاريخي. أما في ما يتصل بالسياق الروحي، فإن أهم عوامل استقرار الهوسا في السودانية تمثل في ما يعرف بـ "الحج بمشقة" (Pilgrimage with hardship) وبعض العوامل الاقتصادية الملزمة له بصورة مباشرة أو غير مباشرة. فقد رسخ في مفهوم الحاج الهوساوي إلي وقت قريب، عدم جدوي تكبد المشاق وقطع آلاف الأميال إلي الأراضي المقدسة، والتعرض لشتي أنواع المخاطر من حيوانات مفترسة وغير ذلك، ما لم يضمن أداء حج سليم من جميع أوجهه ونيل أكبر قدر من الأجر منه. لذلك عندما يغادر الحاج بلاده كان يترك وراءه كل أمواله التي لم يتأكد من مصدرها من حيث الحلال والحرام، ويبدأ في توفير مال الحج من كسب يده، وذلك بالعمل اليدوي الشاق أثناء الرحلة. لهذا السبب تستغرق رحلة الحج والعودة فترة طويلة تتراوح بين ثلاث إلي سبع سنوات. رغم أن الغالبية العظمى من هؤلاء الحاج كانوا يوفقون في أداء فريضة الحج والعودة إلي بلادهم، إلا أن البعض منهم قد لا يتمكن من الوصول إلي الأراضي المقدسة. كما أن منهم من يتخلف في طريق العودة، وينتهي بهم الأمر إلي الاستقرار الدائم.

قبيلة الفولاني:

هاجرت مجموعات كبيرة من الفولاني إلي السودان تدفعها عدة عوامل وأسباب، منها أسباب ودوافع قبلية وطبيعية، وأخري ثقافية ودينية، إلي جانب أسباب أخري سياسية واقتصادية وقد أدت هذه الأسباب مجتمعة أو متفرقة إلي هذه الهجرات وهي تتمثل في فكرة المهديّة، والحج إلي الأراضي المقدسة في مكة المكرمة بالطرق البرية عبر السودان وبعد أداء فريضة الحج رجع بعضهم واستقر علي ضفاف النيل في انتظار ظهور المهدي، ومن الغريب أن آخر المطاف لكل من هذه الهجرات لم يكن دائماً الحجاز بل غالباً "بحر النيل"

قبائل البرنو:

تكونت مجموعته البرنو نتيجة لهجرات قبائل البربر الصناهجة الملثمين والطوارق والفلاته والتيو وفي مدينة النهود يسكن البرنو والبرقو والفلاته الذين هاجروا من غرب السودان وغرب أفريقيا في أحياء تقع جنوب مدينة النهود هي أحياء النصر والأزهري وحي الزبال وهؤلاء هاجروا إلي السودان في سنة 1903 بعد مقتل السلطان الطاهر في بايرمي في ذلك العام حيث نجد أن معظم هجرات هؤلاء كانت هرباً من القتل الدائر في مملكة البرنو وبسبب المجاعات ومنهم من هاجر بغرض أداء فريضة الحج. لذلك استقر البرنو في دار حمر. وبعد سقوط دولة المهديّة علي أيدي قوات الحكم الثنائي عام 1898م وسقوط دولة السلطان علي دينار سنة 1916م في دار فور علي يد قوات الحكم الثنائي بقيادة القائد هولتسون انتظمت هجرات البرنو وقبائل غرب أفريقيا إلي دار حمر. فهاجر إلي مدينة النهود بصفة خاصة ودار حمر بصفة عامة أعداد كبيرة من قبائل غرب أفريقيا مثل البرنو والبرقو والفلاته. ويعمل البرنو في الزراعة حول مدينة النهود وفي مناطق جنوب المدينة حول حدود قري ابو حميرة وود ابو عجاله وكذلك يزاولون مهنة التجارة والشحن وما زالو يحتفظون بلغتهم الخاصة بهم مع معرفتهم باللغة العربية. ويشتهر البرنو بحفظ القرآن الكريم

ومعرفة الفقه الإسلامي ويعملون في تدريس علوم القرآن والدين الإسلامي في المعاهد والخلوي بمدينة النهود وقد ابلوا بلاء حسناً في هذا المضمار وبرز منهم العديد من العلماء.⁽⁹⁾

كانت هجرة البرنو إلى السودان الشرقي أو النيل قديمة لعدم وجود حواجز تفصل بين السودان وماجاورها في الغرب وقد اشارت بعض المصادر التاريخية إلى أن نفوذ امبراطوريه كانم برنو الإسلامية قد امتد حتى نهر النيل في العصور الوسطى. وتشير المصادر إلى أن هناك هجرات فردية دخلت السودان النيل تلت تلك الهجرات السابقة بزمن بعيد ثم جاءت هجرة السلطان عثمان بن كادي قاضي ابن الماي داوود أحد امراء مملكة كانم برنو الإسلامية الطامع في الحكم اثر خلاف مع اسرته حول عرش مملكة برنو الإسلامية في عام 1481 فاتجه شرقاً حتى وصل إلى مناطق النيل الأزرق التي وصل إليها أسلافه من قبل وفرض هو واتباعه سيطرتهم على منطقة الشلك.

أثر الأبعاد الجغرافية علي استقرار الحجاج عبر السودان:

يعتبر السودان بهذا التقسيم الحديث جغرافياً ((يحده من الشمال خط 22° من خطوط العرض الشمالي إلى الشمال من حلفا. ومن الجنوب بلاد يوغندا علي خط 5° من خطوط العرض الشمالي. ومن الشرق البحر الأحمر وبلاد الحبشة ومن الغرب والجنوب الغربي الصحراء الكبرى وبلاد وداي والجنال المتوسطة بين نهر الكونغو وبحر الغزال. وهو علي شكل غير منتظم طوله من الشمال إلى الجنوب 1300 ميل وعرضه من الشرق إلى الغرب ألف ميل)⁽¹⁰⁾.

أما عن الأبعاد الجغرافية، التي تؤثر هي الأخرى علي مختلف التكوينات الثقافية والاجتماعية، فيمكن القول أن كلمة السودان ((استعملت لدي الجغرافيين العرب للدلالة علي الشعوب التي تسكن بلاد السودان والتي تحدها الصحراء الكبرى في الشمال والغابات الإستوائية في الجنوب والبحر الأحمر في الشرق والمحيط الأطلسي في الغرب. ولم تستعمل كلمة السودان بمفهومها السياسي الذي يشمل الحدود الحالية، إلا في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ونلاحظ أن هذه الحدود تشمل النواة الحضارية الأولى التي بدأت بثقافة زنوج الشيناب وحضارة كرمه، ثم شملت عهدي نبته ومروي ومملكتي المقررة وعلوة المسيحيين)⁽¹¹⁾.

إضافه لذلك فإن المعلوم عن مراعي النوبة وأراضيها أنها أكثر خصوبة من أراضي ومراعي شبه الجزيرة العربية وعلي وجه الخصوص النوبة الجنوبية (علوة) التي كانت أكثر إتساعاً وأخصب أرضاً وأوفر ثروة من المقررة إضافة إلي أن مناخ النوبة الشمالية (المقررة)⁽¹²⁾ يشابه مناخ وبيئة شبه الجزيرة العربية⁽¹³⁾ وهو ما يوائم حياتهم التي جلبوا عليها في حب الترحيل والتنقل وقد كان لهذا التشابه في المناخ وطبيعة البلاد والأرض المستطحة أثره في دفع هذه القبائل للاستقرار في السودان⁽¹⁴⁾.

كما أن نظرة إجمالية إلى السودان تبين (أنه بلد تلاي وليس بلداً جبلياً، مع أن أقاليمه الوسطي والجنوبية تحيط بها مرتفعات الحبشة شرقاً ومجموعة جبل مرة غرباً وسلسلة جبال أفريقيا الوسطي والبحيرات العظمي والوادي المتصدع جنوباً. وتستمد السهول التي تتخلل هذه الجبال خصائصها الطبيعية جزئياً من المناخ ومن الأمطار المباشرة. وفي الأحواض العليا للنيل، فإنها

تستمد هذه الخصائص من أقطار الأراضي الجبلية التي تليها، والتي تصرف دفقها في الشمال والشمال الغربي في وديان ومستنقعات الأراضي المنخفضة⁽¹⁵⁾ كذلك يمكن القول بأن (أراضي السودان الواقعة في أقصى الشمال والتي تمتد داخلياً علي ضفتي النيل، تنتمي من الوجهة الجغرافية إلي الشريط شبه الصحراوي العريض الذي يشمل الجزيرة العربية، وجنوب الصحراء الكبرى، وأن هطول الأمطار هنا يكاد يكون معدوماً ويبلغ حوالي بوصة واحدة في مروي الجديدة، ويتراوح متوسط هطولها في الخرطوم وبورتسودان من ست إلي سبع بوصات، وفي الأبيض غرباً وكسلا شرقاً، يتراوح متوسطها بين اثنتي عشرة وأربع عشرة بوصة، بينما يصل متوسطها في ودمدني إلي ست عشرة بوصة، وكلما اتجهنا جنوباً تسارعت وتيرة الزيادة إلي أن تصل إلي ست وثلاثين بوصة تقريباً في وادى بحر الغزال وتصل إلي ثلاث وأربعين بوصة ونصف بوصة وتزداد أكثر كلما اقتربنا من مستجمع مياه الكنغو والنيل ومنطقة البحيرات العظمى)⁽¹⁶⁾. وبالطبع فإن اختلاف معدلات هطول الأمطار يؤثر بالضرورة علي أنواع ومساحات الغطاء النباتي في السودان، الشئ الذي يؤثر بدوره علي معدلات السكان ومدي استقرارهم. ومما لا شك فيه أيضاً أن هذا الموقع الجغرافي للسودان، أكسبه ميزات عدة علي مستوي حركة السكان وأنشطتهم الاقتصادية المتنوعة حسب تدرج المناخ نفسه. بالإضافة إلي (أن نظرة واحدة لخريطة أفريقيا الطبيعية تكفي لإبراز أهمية النوبة كحلقة وصل بين منطقة البحيرات الكبرى وحوض نهر الكنغو في وسط أفريقيا من جهة البحر الأبيض المتوسط، ومن جهة أخرى، فقد تم الاتصال المباشر بين حضارات البحر المتوسط القديمة وبين أفريقيا السوداء عبر وادي النيل الذي يجري قسم كبير منه موازياً للبحر الأحمر في الممر النوبي. تحفه الصحراء في الغرب و الصحراء العربية أو النوبة من الشرق⁽¹⁷⁾ ذلك لأن النوبة تقع علي (مفترق طريق أفريقي بالغ الأهمية، مما يجعلها ملتقي الحضارات القديمة في الشرق والغرب والشمال والجنوب من أفريقيا. فضلاً عن حضارات الشرق الأدنى وحضارات آسيا البعيدة وأوروبا المطلة علي البحر المتوسط)⁽¹⁸⁾ الشئ الذي يقود بدوره إلي حقيقة احتكاك وملامسة الثقافات السودانية للعديد من الثقافات الأخرى ومن مختلف الجهات.

لم تكن الجهود التي بذلها الحجاج والرحالة في مجال نشر الدعوة الإسلامية تقل أهمية عن الجهود التي بذلها الدعاة في المجال هذا فبالرغم من أن الحجاج والرحالة كانوا ينظرون لبلاد البجة بصورة عامة ولموانئها الخاصة على اعتبار أنها تمثل منطقة أوقفاً يعبرون منها إلى بلاد الحجاز⁽¹⁹⁾. قرب المسافة بين الموانئ البجائية وبين موانئ الحجاز، وخلو المناطق الساحلية المتاخمة للموانئ البجائية من العوائق الطبيعية أوقلتها بتعبير أدق وأدى التعاون والتداخل الذي حدث بين البجاويين وبين العناصر العربية المهاجرة وانعكس ذلك بشكل عام على استقرار المنطقة.

هذا ويمكن تصنيف الجهود التي بذلها الحجاج والرحالة إلى جهود مباشرة وأخرى غير مباشرة فمن جهودهم المباشرة تأثيرهم الواضح في البجاويين الذين كانوا يعملون معهم كأجراء لحراسة القوافل التجارية، ذلك أن المدة التي يمضيها الرحالة الحجاج في الطريق من مدن جنوب مصر حتى موانئ البجة كانت تصل إلى خمسة عشر يوماً⁽²⁰⁾ وأحياناً إلى أكثر من ذلك، مما أتاح

الفرصة لهؤلاء الحرس للإستفادة وللتعرف على الحجاج المسافرين في هذه القوافل، كما أن ذلك قد أتاح فرصاً كبيرة لهؤلاء الحجاج لدعوة هؤلاء الحراس للإسلام، ولا سيما أن الحجاج كانوا يدركون أن بعضه مقرب من الإسلام بسبب بدواتهم وبقائهم على فطرتهم⁽²¹⁾.

أثر حركة الحجيج علي التركيبة الديموغرافية من النواحي الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في السودان:

قامت في السودان الغربي -غرب إفريقيا حالياً- دول إسلامية زاهرة، واتخذت هذه الدول من الإسلام ديناً لها ومن اللغة العربية لغةً للعبادة والثقافة والتجارة، فعن طريق انتشار الإسلام والعلوم العربية الإسلامية، سارت هذه المنطقة في طريق الحضارة والتقدم والازدهار⁽²²⁾

1- الأثر الاقتصادي للطريق الغربي:

إشتهرت مناطق السودان بالثروة ولاغني حيث كانت البضائع ترد إليها من جهات مختلفة، أضافه الي ذلك في اطار تجارتها الداخلية عبر الطريق الغربي كانت تستورد من كردفان الذهب والرقيق والصمغ، كما تدفق اليها الذهب ايضاً من كادقلي مع الجلود والريش والصمغ من الحبشه استوردت الزباد والعسل والعاج، لذلك تعتبر الذهب من اكبر صادراتها اضافة الي الرقيق والسن والريش والمنتجات الاخرى. وقد وصف الرحالة الادريسي التجار عبر الطريق الغربي الذي يمر ببلاد الزغاوة الي بلاد الغرب الافريقي كما وصف التجار الذين يرتادون هذا الطريق واسلوب تعاملهم ومعيشتهم ولباسهم⁽²³⁾ مما سهل حركة هؤلاء التجار عبر الطريق، ومما سهل ايضاً حركة التواصل عبر الطريق الغربي الذي فروعه المتعددة، عدم وجود عوائق تعوق حركة التواصل، لذلك هاجر عدد كبير من التجار الجلابه من السودان النيلي الي الغرب، فاستقروا في كويبة وكبكاية بسلطنة الفور ونمرو الجلابه بسلطنة وداي حيث تعتبر هذه المراكز من اكبر مراكز الجلابه في الغرب، فوصلت تجارتهم غرباً عبر هذه الطرق الي برنو وباقرمي وتمبكتو وولايات الهوسا وما جاورها، ومما ساعدهم علي ذلك سهولة الحركة ورغد العيش ورواج التجارة⁽²⁴⁾ وقد مارس بعض هؤلاء التجار صيد الرقيق سرا دون اذن من السلطات الحاكمة فوصلوا حتي النيجر ومجاهل افريقيا، حيث قوي حركة التجارة بين سكان غرب ووسط افريقيا بسودان وادي النيل، وتزوج عدد من التجار الجلابه في المناطق التي عملوا فيها ونقلوا اليهم موروثاتهم وثقافتهم وعاداتهم. كان للطريق الغربي اهمية اقتصادية كبيرة علي سنار وما جاورها حيث تنقل تجارة ومنتجات الغرب الافريقي من بلاد برنو وباقرمي ودارفور وكردفان الي الشرق وتعود محملة بالمنتجات الشرقية من عطور وتوابل خرز وانسجة، كما قصد سنار قوافل من بلاد النوبة واثيوبيا وذلك لموقعها الاستراتيجي التيتنوسط طرق القوافل القادمة من الشمال والشرق والجنوب والغرب⁽²⁵⁾ هذا الطريق امن واقرب من الطرق الاخرى حيث نعود القوافل محملة بالمنتجات الشرقية الي الغرب الافريقي، وقد عملت التجارة علي توثيق الصلات بين هذه البلاد، كما عملت علي نقل الثقافات والعادات والموروثات بينهما تجمع كل الدراسات علي الإسهام المقدر للهوسا في تاريخ السودان الاقتصادي الحديث. وهنا قد تبادر إلي ذهن القراء مشروع الجزيرة ومشاريع إنتاج

القطن في جبال النوبة ومشروع إنتاج السمسم في القصارف ومشروع الزيداب مثلاً، غير أن دورهم في هذا المجال لم يبدأ بهذه المشاريع.⁽²⁶⁾

2- الأثر الثقافي والاجتماعي للطريق الغربي:

كان تاريخ قيام سلطنة الفونج هو الوقت الحقيقي الذي بدأ فيه انتشار الاسلام في السودان الشرقي بصورة اكبر من ذي قبل، كما دخل الاسلام من بلاد الغرب الي زعامات دارفور وسلطنتها في وقت مبكر. وقد تدفقت الهجرات العربية الي السودان من مصر بنهاية الممالك المسيحية، حيث انزاح الستار وانفتح الباب علي مصراعيه امام الهجرات العربية، وقد بذل سلاطين الفونج جهودا جبارة لتمكين الاسلام يساعدهم في مشايخ العبدلاب، فاتصلت سنار بالعالم الاسلامي عن طريق هجرة العلماء وطلاب الي لاماكن المقدسة عبر البحر الاحمر وميناء سواكن عن طريق قوافل الحج⁽²⁷⁾ وواصل هؤلاء المهاجرين سيرهم شرقا مصطحبين قوافل الحج عبر الطريق الغربي الي الاماكن المقدسة، فاستقر بعضهم المقام اما في رحلة الذهاب او الاياب في كردفان وسلطنة الفونج لما وجدوه من حفاوة واحترام من السلاطين والعامه.

تعود الصلات والروابط بين السودان والمغرب لعهد السلطنة الزرقاء في السودان والتي استقر لها الحكم في السودان خلال خمسة قرون بدءا من القرن الخامس عشر⁽²⁸⁾ وبدأت الروابط جرات المغاربة من بلادهم الي الحج لبيت الله عبر السودان، واستقر العديد منهم في السودان في طريق عودته رغبة في الاقتراب من الأراضي المقدسة والحج اليه كل عام، خاصة بعدما لقوه من معاملة سمحة وطيبة من قبل سكان السودان في ذلك الوقت.

كون المغاربة المهاجرون والذين استقروا بالسودان مايسمى حاليا بقبائل المغاربة الذين استوطنوا السودان في كافة أرجائه خاصة في المناطق الواقعة بين الخرطوم وأرض الجزيرة، وانقسموا إلى قبائل وفروع وأفخاذ وبطون وأفخاذ وأصبحوا يكونون جزءاً من النسيج الاجتماعي السوداني⁽²⁹⁾ كما اشتهرت مدارس ومؤسسات دينية في سلطنة الفونج تخرج فيها فقهاء وعلماء اثروا الجانب العلمي من حلقاتهم مراكز اشعاع ديني قصده طلاب العلم من مملكة برنو ووداي وبارمي، فنهلوا من علوم القرآن والتوحيد والتجويد والفقه والتفسير علي النهجين المصري والحجازي⁽³⁰⁾

كان لهجرات بعض الاثنيات من غرب افريقيا واستقرارهم بالسودان النيلي وشرق السودان وغربه اثره العميق في تاريخ السودان كهجرة الفلاتة والبرنو وبعض الاثنيات الصغيرة كالمراريت والارنقا والمساليت والقمر وغيرهم من الاثنيات التي هاجرت عبر هذا الطريق واستقرت بالسودان الحالي .

الخاتمة:

قطنت المجموعات المهاجرة في غرب افريقيا علي طول الطريق المؤدية الي الاماكن المقدسة والمؤدية من أقصى غرب إفريقيا مروراً بوادي ودارفور وكردفان حتي سنار وشندي ثم البحر الأحمر والحدود الشرقية للسودان فتمازجت وانصهرت مع المجموعات التي سكنتها فنقلت عاداتها

وتقاليدها وحضاراتها ولغاتها إلى تلك المجموعات كما تشربت ثقافات المجموعات العربية والمحلية التي وفدت إليها لأنها وجدت كل القبول والإحترام خصوصاً العلماء ورجال الدين الذين كانوا مكان احترام وإكرام السلاطين والعامّة⁽³¹⁾.

النتائج:

الفرضية الأولى:

ما التداعيات الدينية والاقتصادية التي أثرت على التركيبة الديموغرافية؟:

من خلال الدراسة اتضح وجود عدد من العلاقات التي تربط بين السودان والعالم الخارجي عبر الرحلات التجارية وقوافل الحج والهجرات من والمملكة واهم الطرق التي كان لها الأكبر في انعاش وتطور السلطنة وتوثيق صلاتها بإفريقيا جنوب الصحراء وشمالها هو الطريق الغربي، وبدأت الروابط والهجرات إلى الحج لبيت الله عبر السودان لعدد من القبائل مثل: الفلاتة والبرنو وبعض الاثنيات الصغيرة كالمرايرت والارنقا والمساليات والقمر والمغاربة وغيرهم من الاثنيات التي هاجرت عبر هذا الطريق واستقرت بالسودان الحالي، واستقر العديد منهم في السودان في طريق عودته رغبة في الاقتراب من الأراضي المقدسة والحج إليها كل عام، خاصة بعدما لقوه من معاملة سميحة طيبة من قبل سكان السودان في ذلك الوقت و قد اشتهر البرنو والفلاتة بحفظ القرآن الكريم ومعرفة الفقه الإسلامي ويعملون في تدريس علوم القرآن والدين الإسلامي في المعاهد والخلّوي بمدينة النهود وقد ابلوا بلاء حسناً في هذا المضمار وبرز منهم العديد من العلماء، وانصهر احفادهم بالمجموعات العربية التي ساكونهم وعلياً أثر ذلك توافدت مجموعه كبيرة من المهاجرين الفلاتهالي تلك المناطق واستقروا بدارفور وكردفان والجزيرة وسنار والنيل الازرق وما جاورها ومن هذا الصياغ اثبتت الدراسة وجود تداعيات دينية، وقد وصف الرحالة الادريسيان عدد من التجار كانوا يرتادون الطريق الغربي مما سهل حركة هولاء التجار عبر الطريق، ومما سهل ايضاً حركة التواصل عبر الطريق الغربي الذي فروعته المتعددة، عدم وجود عوائق تعوق حركة التواصل، لذلك هاجر عدد كبير من التجار الجلابه من السودان النيلي الى الغرب، فاستقروا في كويبة وكبكاية بسلطنة الفور ونمرو الجلابه بسلطنة ودايوتزوج عدد من التجار الجلابه في المناطق التي عملوا فيها ونقلوا اليهم موروثاتهم وثقافتهم وعاداتهم.

الفرضية الثانية:

مامدي مساهمة الحجيج في تطور العلاقات الاجتماعية والثقافية في السودان؟:

علماً بأن الحجاج في الزمن السابق لم يكن أمره مقتصر على العبور وإنما يتعداه إلى الإقامة والمصاهرة ودعوة الخيرين من أهل مكة وغيرهم من سائر بلاد المسلمين وعلمائها لزيارة السودان والإقامة فيه. الامر الذي ترك أثراً بالغاً في نسيج التكوين العرقي والثقافي والفكري والاجتماعي والسلوكي والسياسي والروحي والحضاري للأمة والتي تمثلت في حضارات الشرق الأدنى وحضارات آسيا البعيدة وأوروبا المطلّة علي البحر المتوسط الشئ الذي يقود بدوره الي حقيقة احتكاك وملاسة الثقافات السودانية للعديد من الثقافات الأخرى ومن مختلف الجهات، وتعتبر طرق الحج في

السودان من اهم المقومات الثقافية والحضارية والتي كما فتأت أن شكلت الوجدان الإفريقي من خلال بناء خلال بناء علاقات التعايش والتسامح وجود قواسم مشتركة بين الجزيرة العربية وبين السودان الحالي بحدودة الحالية والتي تتمثل في التداخل العرقي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي والنفوذ السياسي والإرث الحضاري.

الفرضية الثالثة:

ما أثر العوامل الجغرافية والاستراتيجية في استقرار الحجيج في السودان؟:

من المعلوم عن مراعي النوبة وأراضيها أنها أكثر خصوبة من أراضي شبة الجزيرة العربية فإن طبيعة بلاد السودان والتي تحدها الصحراء الكبرى في الشمال والغابات الإستوائية في الجنوب والبحر الأحمر في الشرق والمحيط الأطلسي في الغرب أدى إلي استقرار عدد من الحجيج في السودان ومعالجهم التي بذلها الحجاج والرحالة في مجال نشر الدعوة الإسلامية فقد كانوا ينظرون لبلاد البجة بعامة ولموانئه الخاصة على اعتبار أنها تمثل منطقة أونقاطاً يعبرون منها إلى بلاد الحجاز نسبة لقرب المسافة بين الموانئ البجاية وبين موانئ الحجاز، واخل والمناطق الساحلية المتاخمة للموانئ البجاية من العوائق الطبيعية أوقلتها بتعبير أدق وأدى التعاون والتداخل الذي حدث بين البجاويين وبين العناصر العربية المهاجرة وانعكس ذلك بشكل عام على استقرار المنطقة.

التوصيات:

1. ضرورة تفعيل دور التواصل والاتصال في تعزيز وبناء العلاقات الدولية.
2. محاولة تأسيس مراكز جغرافية لمعرفة آليات التوصل الاجتماعي بين المجتمعات وماهية مؤشرات الانقطاع.
3. العمل علي تطوير السمات الاقتصادية والثقافية لتقوية الروابط الازلية السودانية مع الدول الاسلامية.
4. صياغة بروتوكولات تجارية واسعة الأحجام طويلة المدي , وتشجيع تبادل الاستثمار في المجالات التكاملية.
5. تعميق الصلات التي تربط بين المسلمين في مختلف بقاع العالم الاسلامي وازاحة الفوارق للتمييز العنصري.

الهوامش:

- (١) Burckhardt:1822,408
- (2) الحاج من شمال إفريقيا عبر مصر (1883 - 1268) دراسة تاريخية - جغرافية، د. نزار علوان عبد الله طريق، مؤتمر طرق الحج في إفريقيا، 2017.
- (3) Adu, Boahen. 1962:1,349-35
- (4) محمد احمدكبرين الفلاته والفولانين في السودان الاصل والتاريخ القاهرة /مركز الدراسات السودانية 1995 ص33
- (5) arkell j a. The history of dar fur 200-1700s.n.r. 1952(p)216
- (6) الفلاته في الجزيرة (1892-1956) ادم ابرك محمود علي /بحث متقدم لنيل درجة الفلسفة في التاريخ/جامعة الخرطوم/كلية الدراسات العليا (1998) ص58
- (7) يوسف فضل /مرجع سبق ذكره ص 89
- (8) مؤتمر برلين عام 1884
- (9) <http://www.alnahoodregion.com/nonhamertribes.htm> استقرار القبائل غير الحميرية في دار حمر - 15 أبريل، 2011 09:45 ص 22302 - 24، عمر فضال الله 03، ديسمبر، 2010
- (10) نعوم شقير - جغرافية وتاريخ السودان - دار الثقافة بيروت - لبنان - 1976م - ص9.
- (11) يوسف فضل - الجزء الأول - مرجع سابق - ص 20
- (12) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ، ج1، دار صادر ، بيروت، 1960، ص191
- (13) شوقي الجمل: تاريخ وحضارات السودان ،ج1 القاهرة مكتبة الانجلو المصرية 1969 م ، ص 254، الصادق المهدي : مستقبل الاسلام في السودان، ص 17.
- (14) مصطفى مسعد ، الاسلام والنوبة ، القاهرة مكتبة الانجلو المصرية 1966م، ص107
- (15) السير هارولد ماكمايكل - السودان - ترجمة محمود صالح عثمان - مركز عبد الكريم ميرغني - أمدرمان - الطبعة الأولى 1954-ص39.
- (16) المرجع نفسه - ص40.
- (17) أحمد محمد علي الحاكم - حضارتا نباتا ومروي - مرجع سابق - ص229.
- (18) نفس المرجع - ص231.
- (19) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص189
- (20) ابن جبير: الرحلة، ص65
- (21) القاسم التجيبي: مستفاد الرحلة، ص209
- (22) بللو، وحمد بن عثمان بن فودي : إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق 8 إيجة الشاذلي، الرباط 1996م، ص 47.
- (23) ابو عيدالله محمد بن محمد بن ادريس الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، لبنان، بيروت، عالم الكتب للنشر، 1958/ص 33

- (24) نعيم شهر، جغرافيا وتاريخ السودان، دار الجبل، بيروت، ص 163
- (25) يوسف فضل حسن، مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الأوسط والشرقي 1450-1821 (السودان/الخرطوم/الدار السودانية للكتب/ط2/1889م، ص88
- (26) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة
- (27) مكي شبكة، السودان عبر القرون/دار الجبل/بيروت/1991م، ص80
- (28) عون الشريف، موسوعة القبائل والأنساب في السودان، الجزء السادس، افروجراف للطباعة والتغليف السودان، 1996، ص2349
- (29) عون الشريف قاسم ، مرجع سبق ذكره، ص2349
- (30) رجب محمد عبد الحليم، الاسلام والعروبة في دارفور في العصور الوسطي/ليبيا/دار الثقافة للنشر والتوزيع:ص226
- (31) يوسف فضل /مرجع سبق ذكره ص 89

المصادر والمراجع:

- (1) إبنجيير: الرحلة، ص65
- (2) إبنعبدالحكم: فتوح مصر، ص189
- (3) أبو عيدالله محمد بن محمد بن ادريس الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، لبنان، بيروت، عالم الكتب للنشر، 1958/ص 33
- (4) أحمد محمد علي الحاكم - حضارتا نباتا ومروي - مرجع سابق - ص229.
- (5) إستقرار القبائل غير الحميرية في دار حمر- 15 أبريل، 2011 09:45 ص 22302 - 24، عمرفضلالله، 03 ديسمبر، 2010- <http://www.alnahoodregion.com/nonhamertribles.htm>
- (6) بللو، وحمد بن عثمان بن فودي : إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق 8 يجة الشاذلي، الرباط 1996م، ص 47.
- (7) رجب محمد عبد الحليم، الاسلام والعروبة في دارفور في العصور الوسطي/ليبيا/دار الثقافة للنشر والتوزيع: ص226
- (8) السير هارولد ماكمايكل- السودان- ترجمة محمود صالح عثمان - مركز عبد الكريم ميرغني- أمدردمان- الطبعة الأولى 1954-ص39.
- (9) شوقي الجميل: تاريخ وحضارات السودان ،ج1 القاهرة مكتبة الانجلو المصرية 1969 م ، ص 254، الصادق المهدي : مستقبل الاسلام في السودان، ص 17.
- (10) عون الشريف، موسوعة القبائل والأنساب في السودان، الجزء السادس، افروجراف للطباعة والتغليف السودان، ١٩٩٦، ص٢٣٤٩
- (11) الفلاتة في الجزيرة (1892-1956) ادم ابكر محمود علي /بحث متقدم لنيل درجه الفلسفة في التاريخ/جامعة الخرطوم/كلية الدراسات العليا (1998 ص58
- (12) القاسم التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٢٠٩
- (13) محمد احمدكبرين الفلاتة والفولانين في السودان الاصل والتاريخ القاهرة /مركز الدراسات السودانية 1995ص33
- (14) مصطفى مسعد ، الاسلام والنوبة ، القاهرة مكتبة الانجلو المصرية 1966م، ص107
- (15) مكي شبكة، السودان عبر القرون/دار الجبل/بيروت/1991م، ص80
- (16) مؤتمر برلين عام 1884
- (17) نعوم شقير - جغرافية وتاريخ السودان - دار الثقافة بيروت - لبنان - 1976م - ص9.
- (18) نعوم شقير، جغرافيا وتاريخ السودان، دار الجبل، بيروت، ص163
- (19) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة
- (20) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ، ج1، دار صادر ، بيروت، 1960، ص191
- (21) يوسف فضل حسن، مقدمة في تاريخ الممالك الاسلامية في السودان الاوسط والشرقي 1450-1821 (السودان/الخرطوم/الدار السودانية للكتب/ط2/1889م، ص88

Adu, Boahen. 1962:1,349-35(22)

arkell j .aThehistory of dar fur 200-1700s.n.r.1952(p)216(23)